

المتقف والعقيدة

قد يعتقد من ينظر إلى واقع الحياة العربية بأن هناك ملايين المثقفين العرب، لكن من يتفحص حال الثقافة والفكر في البلاد العربية سوف يكتشف بوضوح أن نسبة المثقفين الحقيقيين لا تزيد بأي حال من الأحوال عن 1% ممن يعتبرهم المجتمع مثقفين، أو ممن يعتبرون أنفسهم مثقفين. من ناحية ثانية، وخلاف لما هو متعارف عليه بين الناس ورجال الإعلام، لا يوجد في العالم مفكر واحد ينتمي إلى عقيدة دينية أو قومية أو ماركسية، مما يعني أنه لا يوجد ما يمكن تسميته "مفكر إسلامي أو مفكر قومي أو مفكر ماركسي أو مفكر رأسمالي". إن استعمال تعابير من هذا النوع هو استخدام خاطئ يضر بقضية الفكر والثقافة والعلم والمعرفة والأخلاق على السواء، ويعيق محاولات تحقيق التقدم وصنع المستقبل، ويقدم التبريرات الكافية لما تعيشه المجتمعات العربية وغيرها من مجتمعات عقائدية من فشل سياسي وتخلف اقتصادي وعلمي وتكنولوجي، وما تعانيه الشعوب العربية عامة من كبت واضطهاد.

إن العقائدي لا يوظف ملكاته العقلية ولا قدراته التحليلية ولا معارفه العلمية عادة من أجل البحث عن الحقيقة داخل أطر عقيدته أو خارجها، بل يوظفها في كل الأحيان والحالات تقريبا لتبرير ما يصدر عن عقيدته ورجالها من أفعال وأقوال وإدعاءات، وأحيانا ما يرتكبه قادتها وأتباعها من تفرقة ضد الغير وجرائم بحق من يخالفونهم الرأي من أبرياء. وكما يعرف كل مؤرخ، ومن السهل أن يكتشف كل باحث أمين محايد، ارتكبت العقائد المختلفة جرائم لا حصر لها عبر التاريخ الإنساني. إذ منذ ميلاد الفكرة الدينية وترسخها في النفوس والقبول بها كفكرة شرعية ذات قدسية لم تعش البشرية ساعة أمن أو وئام أو سلم واحدة، وذلك لأن العقائديين وجدوا في العقيدة الدينية والقومية والماركسية ما يكفي من المبررات لارتكاب جرائم القتل الجماعي والتطهير العرقي باسم العقيدة ومن أجل فرض منطقتها على الآخر.

من ناحية أخرى، يشير التاريخ الإنساني إلى فشل كل العقائد الدينية وغير الدينية في تحرير الإنسان الذي حكمته من الكبت والفقر وغالبا الفقر أيضا، وإلى أنها قامت باستباحة حرياته واختزال إنسانيته دون تحقيق التقدم أو الازدهار أو السلام الاجتماعي الذي وعدت به وطالبت الأتباع بدفع حياتهم وحرياتهم وأمنهم ثمنا له. وحتى في الحالات القليلة التي نجحت فيها بعض العقائد مثل الإسلام في بدايات انتشاره في تحقيق انجازات علمية وثقافية رائدة في العصور القديمة، فإن تلك النجاحات سرعان ما تلاشت وانقلبت إلى كبت وقهر وتخلف ونزاع وعبودية.

إن جمود الفكرة العقائدية وعنصرية الممارسة الإيديولوجية وعنجهية القيادات المهيمنة عليها جعل من شبه المستحيل أن تتجه أية فكرة إيديولوجية إلى منح الشعب الذي تحكمه ما يستحق من حرية، أو أن تسمح للمفكرين والمثقفين والعلماء من أبنائه بنقد أفكارها أو ممارساتها على الأرض. إلى جانب ذلك، لم تستطع أية عقيدة أن تواكب التطور الذي كان ولا يزال سنة الحياة، مما جعلها تفشل فشلا ذريعا في تحقيق أهدافها، وأن تقوم بسبب إيمانها المطلق بصلاحية فكرها بإلقاء مسؤولية الفشل على الغير والقدر. وتشير وقائع التاريخ إلى أن كل الأيديولوجيات ارتكبت أخطاء وجرائم كثيرة ليس فقط بحق الغير من أتباع العقائد المختلفة أو المناهضة، بل وأيضا بحق أتباعها، مما جعلها تنتهي بالفشل وتحكم على المجتمع العقائدي وغير العقائدي الذي هيمنت عليه بالتخلف والحرمان وفقدان الثقة بالنفس. وهذا كان سببا في تراجع قدرات كل المجتمعات العقائدية على تجاوز المحن والأزمات المجتمعية والتصدي للتحديات الداخلية والخارجية على السواء، الأنية منها والمستقبلية. ومما يدل على ذلك فشل القومية في ألمانيا وقيامها بارتكاب جرائم لا حد لها بحق الغير، وفشل الماركسية في روسيا بعد قيامها بقتل الملايين من الفلاحين والتسبب في حروب كثيرة، وفشل الرأسمالية في أمريكا وتسببها في زيادة الفقر والبؤس في معظم بقاع العالم بما في ذلك أمريكا. كما أنه ليس هناك تجمع عقائدي متمزمت واحد في العالم، أكان دينيا أو قوميا أو ماركسيا أو رأسماليا يتمتع بالحرية والتقدم، ويعيش حياة تفاعل وتواصل مع الآخر والعصر بسلام وطمأنينة.

وحيث أن كل عقائدي ملتزم يقف دوماً في صف عقيدته، ويسخر كل ما لديه من معارف علمية وقدرات عقلية ومهارات لغوية للدفاع عما يؤمن به من أفكار ومعتقدات، ومن أجل الترويج لقيم وأهداف عقيدته، فقد أصبح كل مفكر وكل مثقف عقائدي مبرراً لما ترتكبه عقيدته وقياداتها من أخطاء وجرائم. لذلك لا يجوز استخدام ألقاب "مفكر إسلامي" أو "مفكر قومي" أو "مفكر ماركسي" أو "مفكر رأسمالي" لأنها ألقاب لا تعكس واقعا ولا تخدم قضية، مما يستوجب عدم الاعتراف بأي إنسان يدعي بأنه مفكر ينتمي لعقيدة بغض النظر عن طبيعة وأهداف ونوايا العقيدة التي ينتمي إليها ويتكلم باسمها. إن من يفكر ضمن إطار إيديولوجية محددة ليس مفكراً على الإطلاق، قد تجوز تسميته مفسراً أو مجتهداً أو فقيهاً، أو غير ذلك، لكن لا تجوز تسميته مفكراً لأن في ذلك إهانة للفكر والمفكر، للعقل والمنطق.

د. محمد عبد العزيز ربيع

www.yazour.com

يونيو 2005